١ ـ أغنية الرياح الأربع

لشاعر اللذة والجمال علي محمود طه

للأستاذ دريني خشبة

هكذا أصبح الشاعر المبدع « علي محمود طه » أغنية في فم الجيل الجديد . وهكذا أصبح شعره إحدى أناشيد مصر الحديثة التي تهتف بها في جنات الجمال ، وتتغناها في بساتين الحب ، وتغازل بها روح الفن ، وتحفز بموسيقاها هم الشباب ، وتعطر بأريجها أجواء المجتمع ، وتثبت بها شخصيتها في دنيا الشعر العالمي

انتظروا يا أصدقائي الشعراء !

انتظروا . فوالله إني لأعرف لكل منكم فضله ، ومسجل إن عشت لكل من بلابلكم يده ، وما بدأت إلا بواحد منكم كنت أنتظر أن يفي بوعده الذي وعد منذ سنوات عشر حتى أنجزه ، وأرجو أن يأخذ في إنجازه إلى ما يشاء الله

أما كيف أنه وعد وعداً ولم ينجزه إلا بعد سنوات عشر ، فمرجعه إلى وفاة شوقي أمير الشعراء رحمه الله وغفر له ، وذلك أنه كان قد ألقى قصيدة من نظمه في رثاء الشاعر الخالد ، في حفلة أقامتها ممثلة الشوقيات الأولى « السيدة فاطمة رشدي » في يناير سنة ١٩٣٣ ، يقول فيها الأبيات التالية التي علقت بذاكرتي طول هذه السنوات العشر :

أيها المسرح الحزين عزاءً ... قد فقدت الفداة أقوى دعامه
ذهب الشاعر الذي كنت تستو ... حي وتستلهم الخلود كلامه
واهب الفن قلبه وقواه ... ومصافيه ودّه وهيامه
رب ليل بجانبيك شهدنا ... قصة الدهر روعة ونخامه
أسفر الشعر عن روائعه فيها ... وألقى عن الخفاء لثامه
فأعد عهده ، وأحي ليالي ... ليه ، وجدد على المدى أيامه
(ولك اليوم همة في شباب ... ملأوا العصر قوة وكهامه)
نزلوا ساحه يشيدون للمجد ... وشقوا إلى الحياة زحامه
فاذكروا نهضة البيان بأرض ... أطلعت في سمائها أعلامه
إنها أمة تغار على الفن ... وترعى عهوده وذمامه
(لم تزل مصر كعبة الشعر في الشرق ، وفي كفها لواء الزعامه)
إن يوماً يفوتها السبق فيه ... لهو يوم المعاد ، يوم القيامه !

كنت أردد هذه الأبيات ثم أبحث عن علي محمود طه فلا أجده إلا في قصيدة أو مقطوعة تسفر بها إلينا جريدة أو مجلة ،

كان الماء يتساقط على شفتيها ، وكأنها عروس في ليلة حمراء

أين النموذج ؟ أين ؟ إنه فتاة ذهبت إلى غير معاد ، فما يصنع مثل هذا الجمال ، وهل تطول أعمار الورود ؟

ركضت هنالك طفلة ظريفة ، وهي تقول في بغام يشبه الحنين :

La statue fait comme ça

فما عرفت أي الروحين أرق وألطف ، الروح الناطق ، أم الروح الصامت !

النموذج مات ، بدليل أنه سكت عن مطالبة البلدية بحقوقه في روضة الورد ، ولأن زيارته ميسورة بنصف قرش ، وما أهون الجمال الذي يزار بأنصاف القروش !

أين أنا مما أريد ؟

كان الغرض أن أصف قصر أنطونيادس ، فشرقت وغربت ، وأتهمت وأنجدت ، ولم أقل شيئاً عن القصر ذي الشرفات والروضات ، القصر الذي سمع نجوى القلوب الصوادق بأماني الأمم العربية ، حقق الله تلك الأماني

وهل كان يجوز أن أتحدث عن ذلك القصر قبل أن أصف ما يحيط به من رياض هي ملاعب أهواء ، ومراتع ظباء ؟

كل شيء ينبض بالحياة في تلك المنطقة الشعرية ، وإليها تهفو الأرواح في ضحويات الشتاء ، وعصريات الربيع ، ولا يتنافسها إلا رمال الشواطىء حين يقبل الصيف !

ما هو قصر أنطونيادس ؟ إن لي عندي شجوناً من الحديث ، وموعدنا المقال المقبل ، والله هو الموفق

شكري عياد

حتى لقيته فى المقتطف ذلك اللقاء الـكريم الفاجئ ، فى منظومته الطويلة « الله والشاعر » ... فقلت : نفحة أرجو أن تتلوها نفحات ... وكان على محمود طه فى هذه المنظومة الرائعة عاصفة مكبوتة تريد أن تنطلق ... أو تريد أن تحاج الأرض والسموات

ما أثمت روحى ولا أجرمت ولا طغى جسمى ولا استهترا
عناصر الروح بما ألهمت أوحت إلى الجسم فما قصرا ؟

فلما أتيت على آخر المنظومة

فابتهلى لله ، واستغفرى وكفرى عنك بنار الألم
وقدمى التوبة ، واستمطرى بين يديه عبرات الندم

رثيت له وأعذرته

ثم ملأ أيدينا الممدودة « بالملاح التائه » فبادرت إلى « الله والشاعر » أستعيدها ، وأستغفر الله لهذا البلبل الشادى . ثم ذكرت رثاءه لشوق فطويت الصفحات إليه ، ووقفت عند هذا البيت :

أيها المسرح الحزين عزاء قد فقدت الغداة أقوى دعامه

فطويت الملاح التائه ، وجلست مسترخى الأعصاب شارد اللب ، لا أفكر إلا فى مسرحنا هذا الحزين ، وأدبنا ذاك الشاجب ؛ فلما عدت إلى نفسى ، أو عادت إلى نفسى ، أخذت أقرأ حتى استوقفنى هذا البيت :

ولك اليوم همة فى شباب ملأوا العصر قوة وهمامه

فوجدتنى أردد بيت شوق .

شباب قنع[1] ... ...

رددته مرتين ثم أمسكت ، فلما قرأت هذا البيت :

لم تزل مصر كعبة الشعر فى الشرق ، وفى كفها لواء الزعامه

ذكرت وفود الشرق التى بايعت شوقى فى بيت[2] حافظ ، فطويت الملاح التائه وانصرفت عنه زمناً طويلاً ... ووالله ما انصرفت عنه قالياً أو سالياً ، لكننى ذكرت ما وعدنا به على محمود طه ولما ينجزه ... فتجدد حزنى على شوقى ...

ومضت سنون سبع ، وطلع علينا شاعر اللذة والجمال بليالى ملاحه التائه ، وبه تلك المجموعة الشائقة من روائعه التى قرأناها كلها فى الصحف ، ثم ذكرت وعده الذى وعد ، وأنه لم يف لـكعبة الشعر فى الشرق بشىء من هذا الوعد ، فرحت أردد الذى رددته من قبل من شعر على محمود طه :

أيها المسرح الحزين عزاء قد فقدت الغداة أقوى دعامه !

ثم طلع علينا الملاح التائه « بأرواحه الشاردة » ، فقلت : لا بأس ... روح الشاعر تعانق أشباح أشباهه ! ومن يدرى ؟ لعله لا يزال يستمد ...

ثم فاجأنا « بأرواح وأشباح » فلما قرأتها فغمنى فيها أريج من دانتى ... إنها رحلة الشاعر إلى السماء ، حملته إليها ربة الشعر :

إلى قمة الزمن الغابر سمت ربة الشعر بالشاعر
يشق الأثير صدى عابرا وروحاً مجنحة الخاطر
مضت حرة من وثاق الزمان ومن قبضة الجسد الآسر
وأوفت على عالم لم يكن غريباً على أمسها الدابر

فلما فرغت منها ، وأفقت من حلمها اللذيذ ، سمعت رجع أصدائها تملأ أذنى من منظومته القديمة « الله والشاعر » ، فعدت أستغفر له الله ... وأشبهه بالدهر الذى يقول فيه أبو العلاء :

يا دهر يا منجز إيعاده ومخلف المأمول من وعده !

لولا هذا الجمال الذى عوضنا به مؤقتاً ، والذى أودعه أشباحه وأرواحه .

ثم حيانا على محمود طه بزهر وخمر ، وكنا ننتظر البشرى الثمينة التى كان قد زفها إلينا صديق عزيز ، ثم ملأ أيدينا بالبشرى نفسها ... لقد أنجز على محمود طه ماوعد ... لقد أصدر أغنية الرياح الأربع ! ولقد أصدرها باقة يانعة من السحر والشعر والخيال والخيال

* * *

حانة جميلة على شاطىء فينيقية الساحر فى ثغر بيبلوس[1]

(١) شباب قنع لا خير فيهم وبورك فى الشباب الطامحينا !

(٢) أمير القوافى قد أتيت مبايعاً وتلك وفود الشرق قد بايعت معى

(١) مكان جميل من أعمال لبنان

حيث وجدت إيزيس جثمان أخيها وزوجها أوزيريس ، فى ميثولوجيا المصريين القدماء ، يملكها ويديرها خمَّار يونانى يدعى أرسطفان ، لا يهمه من الحياة إلا حطامها الفانى ... وله زوجة رائعة الجمال لا يهمها من الدنيا إلا أن تملك منها جلباباً أو تزهى فيها بحلية . وقفت تساعد زوجها فى تنظيف الحانة وتنظيمها ، ووقف زوجها يداعبها ويلاعبها . وراحت هى تدل عليه وتتيه ، وتستنجزه ما وعدها من جميل النعم ، فإذا مد يده يداعب خدها الناضج أو فمها المفتر ، اقتحم الحانة شاعر مصرى جوّاب آفاق يدعى باتوزيس ، يحمل على كتفه كل ما يملك من عرض دنياه ... قيثاره و ... قلبه و ... أمانيه ... تلك الأمانى التي لا تزيد على كأس يشعشع بها أحلامه ، أو أغنية يسكن بترديدها آلامه ، أو قَيْنة يربق تحت قدميها أنغامه ؛ وما أرخص هذه الأمانى فى حانة أرسطفان هـذا البيلوسى !

ويرى باتوزيس زوجة الخمار ، فيعتمد القيثار ويقفى أعذب الأشعار ؛ إلا أن أرسطفان يضيق به وبأشعاره ، حتى إذا قال باتوزيس

لو كنت فى طيبة يوماً مى رأيت باتوزيس فى المجلس
يسقيك من خمرة كهَّانها مصرية عـذراء لم تُمسس

انتفضت زوجة الخمارة الحسناء لذكر طيبة ، ولذكر مصر ، وتسائل الشاعر عن ملاعب صباها فى وادى النيل ، فيجيبها ودموعه تترقرق فى عينيه شوقاً إلى مراتع حبه وجنة قلبه

أى صدى هزَّنى وأى حـلم عجاب
هل لى إلى موطنى يا ربَّـتى من إياب ؟
يا ربـتى رددى هذا النـداء الجميل
اليوم أم فى غدٍ أرى ضفاف النيل ؟

وتقدم الزوجة الحسناء بيدها البضة وأناملها الغضة كأساً من الخمر إلى باتوزيس ، ويأخذ الخمار وزوجه والشاعر المصرى فى حديث طلى طويل عن مصر ، تقطعه ضجة يسمعونها من بعد ، وهى تقترب ، فيخبرهم باتوزيس أن اليوم عيد البحار ، وأن البحارة القبلين نشاوى قدموا ليحتفلوا بعيدهم

ربابنـة السـفن المـواخر أقبـلوا
يحيّـون عيـد المـاء عيد السفائن
يلوحون من أقصى الطريق بموكب
تصايح فيه كل نشوان ماجن
ألا حبذا عيـد البحار وحبـذا
شرابىَ فيه أو شجىُ ملاحنى !

ويخشى أرسطفان على زوجته من هؤلاء السكارى العرابيد :

حبيبتى أخشى عليك سكرهم فى حانتى فاجتنبيهم واذهبى

فتسأل زوجها :

مم تخاف ؟ فتنة ؟ أم غَـيْرةً ؟
تظن بى سوءاً ؟ أما وثقت بى !

فيضحك أرسطفان ، ويخبرها أن هؤلاء البحارة إنما يغشون الشواطىء لخطف الحسان .

إنى أخاف عليك وسوسة الطلى
فى كأس عربيد الصبا نشوان
أرسى سـفينته هنـاك كأنها
مقصورة العشاق فى بستان
إن يَدْعُ زائرة له فسبيلهـا
سـوق الرقيـق وعالم النسـيان

(للكلام بقية) دريني خشبة

سلاح الأسلحة والمهمات
بالمعادى
يشهر بيع متخلفات ورش الترزية
والخيامية يوم ٥ يناير سنة ٩٤٤ وليس
١٥ منه كما ذكر خطأ ١٦٨٢